

السرد القصصي في أشعار ديوان الأصمعيات

المدرس المساعد
كوثر هاتف كريم
جامعة الكوفة / كلية التربية للبنات

الأستاذ الدكتور
حاکم حبيب الكريطي
جامعة الكوفة / كلية الآداب

المخلص

إن السرد القصصي أسلوب فني التجأ إليه شعراء الأصمعيات لتصوير واقع حياتهم، فالشاعر دائماً يهدف إلى تسخير أو توظيف جل طاقاته الإبداعية، وقدراته الفنية لبلوغ الهدف الذي يرمي إليه، ألا وهو التعبير عن أفكاره ومشاعره ورغباته، والتأثير بالمتلقي وإحداث المتعة في آن واحد، وأثناء ذلك يسلك طريقاً طويلاً مكللاً بمراحل عدة، ومناهج متباينة، وأساليب مختلفة للوصول إلى هدفه، ولذلك أوجد الشعراء في القصة الشعرية وربما بعض عناصرها المجال الواسع للتعبير عن أفكار أمنوا بها، أو مواقف مروا بها، وفي الوقت نفسه كسب إعجاب المتلقين والسامعين، فأنجوا القصة الشعرية أو الشعر القصصي بما يمتلك من مقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق نفسية قصصية اصطبغت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

المقدمة

مما لا شك فيه أنّ ظاهرة السرد القصصي في الشعر الجاهلي كانت مألوفة، فقصة حمار الوحش، وقصة ثور الوحش، والقصص الغرامي لامرئ القيس والمُنخل البشكرى وغيرهما، ليست بالغريبة بل لها أبعادها الرمزية والتعبيرية في نفوس الشعراء والمتلقين على السواء⁽¹⁾ ولاسيّما بعد أنّ عمق هذه الظاهرة ورود القصص القرآني .

وللعرب أنواع عدة من القصص ابتدعوها من واقعهم أمثال : القصص الإخباري وما تتضمنه من أخبار ونوادر طريفة والحكايات الفخرية ،وما تتضمنه من ذكر للمشاحنات ذات الطابع القبلي ،فضلاً عن القصص التي تتناول مفردات حياتهم بذكر تجاربهم ودلائل حضارتهم ، والقصص التي تتناول معتقداتهم الدينية وأخبار كهنتهم ،وقصص الكرم والمفاخرات ،وقصص الفروسية وقوة النفس (2) .

ويلاحظ أن استعمال السرد القصصي في الشعر القديم، أسبغ على مراحل بناء القصيدة قدرة فنية عالية في استيعاب الحدث وتطويره ،وهذا ما أفادت منه القصيدة ذات المنحى الغنائي ، في إكساب العواطف الذاتية المظهر الموضوعي ، ومما يقوي فيها من الوحدة العضوية (3) ، وذلك لأن القصيدة العربية " استوعبت الأنواع الشعرية المختلفة ،وفي إطار وحدتها الفنية المتماسكة ، إذ إن هذه الوحدة جعلت القصيدة العربية كائناً حياً لا يمكن تقطيعه إلى أجزاء ، ... وبناءً على هذا نقول أن القصيدة العربية استوعبت الأنماط الشعرية كافة ، ولهذا لا يصح أن نقول أن القصيدة العربية غنائية ونكتفي أو ملحمية أو قصصية أو تعليمية ، وإنما هي كائن متميز ومزيج متجانس من هذه الأنماط " (4).

وعليه فالشعر العربي قبل الإسلام " هو الوسيلة التعبيرية الأولى عن حياة العرب فمن البديهي أن يتضمن هذا الشعر ألواناً من تلك القصص التي أنتجتها الحياة العربية " (5) . وقد جاء القصص في ديوان الأصمعيات بأنواعه المختلفة فهناك : قصص المغامرات العاطفية (6) ، وقصص طيف الخيال ، وقصص الكرم ، وقصص الرثاء ، وقصص الحيوان ، إذ جسد فيها الشعراء عناصر القصة المتمثلة في الشخص والمكان والزمان والحبكة أو الحدث .

ولعل أولى تلك القصص هي :

1- حكايات الغزل أو المغامرات العاطفية

وهي قصص يروي من خلالها الشاعر حادثة أو واقعة غرامية كان قد مر بها وعاشها بإحساسه ومشاعره ، كما في قصيدة قيس بن الخطيم في اصمعية له يقف فيها متحسراً على رحيل أبناء جيرانه ويدعو أن لا يبعدوا عن قومه لحبه الشديد لأبنة الجيران ، فأخذ يتذكر أيامه الجميلة معها ويصف شكلها وقوامها الحسن ،وتحدث عن لطفها ورقتها بقوله: (من المنسرح)

رَدَّ الخَلِيْطُ الجِمَالَ فأنصَرَ فُؤَا ماذا عليهم لو أنهم وَقَفُوا

لو وَقَفُوا سَاعَةً نُسَأَلُهِمْ
فِيهِمْ لَعُوبُ الْعِشَاءِ أَيْسَةُ الـ
بَيْنَ سُكُولِ النِّسَاءِ خَلَقَتْهَا
تَغْرُقُ الطَّرْفَ وَهِيَ لِأَهْيَةِ
قَضَى لَهَا اللَّهُ حِينَ صَوَّرَهَا الـ
تَنَامُ عَنْ كُبْرٍ شَأْنَهَا فَإِذَا
حَوْرَاءُ جِيدَاءُ يُسْتَضَاءُ بِهَا
تَمْشِي كَمْشَى الزَّهْرَاءِ فِي دَمْتِ الـ
وَلَا يَغِبُّ الْحَدِيثُ مَا نَطَقَتْ
كَأَنَّ لَبَّاتِهَا تَضَمَّنَهَا
كَأَنَّهَا دُرَّةٌ أَحَاطَ بِهَا الـ
يَارَبِّ لَا تَبْعِدَنَّ دِيَارَ بَنِي
إِنِّي لِأَهْوَاكِ غَيْرَ كَاذِبَةٍ
بَلْ لَيْتَ أَهْلِي وَأَهْلَ أَثَلَةٍ فِي

رَيْثَ يُضَجِّي جِمَالَهُ السَّلْفُ
دَلَّ عَرُوبٌ سَيَوُّوْهَا الْخَلْفُ
قَصْدٌ، فَلَا جَبْلَةٌ وَلَا قَضْفُ
كَأَنَّمَا شَفَّ وَجْهَهَا نَزْفُ
خَالِقُ أَنْ يُكَنِّتَهَا سَدْفُ
قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغْرِفُ
كَأَنَّهَا خُوطُ بَانَةِ قَصْفُ
رَمَلٍ إِلَى السَّهْلِ دُونَهُ الْجُرْفُ
وَهُوَ بِفِيهَا ذُو لِدَّةٍ طَرْفُ
هَزَلَى جَرَادٍ أَجْوَازُهُ جُلْفُ
غَوَاصُ يَجْلُو عَنْ وَجْهَهَا صَدْفُ
عُذْرَةٌ حَيْثُ أَنْصَرَفْتُ وَأَنْصَرَفُوا
قَدْ شَفَّ مِنِّْي الْأَحْشَاءُ وَالشَّغْفُ
دَارَ قَرِيبٍ مِنْ حَيْثُ يُخْتَلَفُ (7)

ويمضي الشاعر في سرد قصته إذ أتخذ من تصوير هذه الحبيبة غطاء شفافاً لسرد
القصة بشخصياتها وأحداثها بألفاظ رقيقة وحديث طريف يتناسب وموقف الوجد والهوى الذي
شغفه بحب تلك المرأة ، فضلاً عن هذا فإن سيرة الأحداث بهذا الشكل يعمل على تماسك
الآبيات والصور والمعاني ، ويسبغ على القصيدة وحدة فنية متماسكة، فقد عمد الشاعر إلى
دعم حكايته بصور جزئية متتابعة ، وهذا التسلسل في أجزائها يكوّن الصورة الشعرية التي أراد
تصويرها لتكون أكثر تلاحماً ، ومن الممكن أن يطلق عليها " الحكاية المصورة " (8) لأتّها
اعتمدت على وصف أخبار وحكايات فحسب.

وكما هو معروف أنّ حياة العرب قائمة على الحل والترحال والتنقل من مكان لآخر
،وغالباً ما يستتبع هذا التنقل حسرة ولوعة في نفوسهم خاصة وهم قد أوجدوا علاقات اجتماعية
وعاطفية ،وهنا يقف الشاعر في لحظة الرحيل واصفاً الطعائن ومشاهد الرحيل بنبضات تمزق
قلبه حباً وحنيناً ، فأخذ ينفث ما يشعر به صدره شعراً ينبض بإحساسهم ولوعتهم تجاه من
رحل من الأحبة و " الحديث عن الطعن يرتبط بماضي الشاعر ارتباطاً وثيقاً ... فيحرص
الشعراء في حديث الطعائن على الإلمام بأدق التفاصيل ،حتى لا تقوتهم شاردة من هذه
المشاهد، فكانهم بذلك يجدون أن من حق الوفاء عليهم أن يعنوا بأخر عهد لهم بأصحاب
هذه الطعائن " (9) .

ومن تلك الوقفات وقفة لأبي دواد الإيادي واصفاً طعائن الحبيبة باعثاً فيها هيامه وحزنه بقوله: (من الخفيف)

مَنَعَ النَّوْمَ مَاوَى التَّهَمَامِ
مَنْ يَنْمُ لَيْلُهُ فَقَدْ أَعْمَلُ اللَّيْلِ
هَلْ تَرَى مِنْ طِعَائِنِ بَاكَرَاتِ
وَإِكْنَاتِ يَقْضَمْنَ مِنْ قَضْبِ الضَّرِّ
وَسَبْتَنِي بَنَاتُ نَخْلَةٍ لَوْ كُنْتُ
يَكْتَبِنَ الْيَنْجُوجَ فِي كَبَّةِ الْمَشِّ
وَيَصْنُ الْوُجُوهَ فِي الْمَيْسِنَانِ
وَتَرَاهُنَّ فِي الْهُوَادِجِ كَالْغَزِّ
نَخَلَاتٌ مِنْ نَخْلِ بَيْسَانَ أَيْنَعُ
وَتَدَلَّتْ عَلَى مَنَاهِلِ بُرْدِ
وَجَدِيرٌ بِالْهَمِّ مِنْ لَا يَنْأَمُ
لِ وَذُو الْبَتِّ سَاهِرٌ مُسْتَهَامُ
كَالْعَدُولَى سَيَّرُهُنَّ أَنْقِحَامُ
م. وَيُشْفَى بِدَلْهِنِ الْهُيَامِ
تُ قَرِيباً أَلَمَّ بِي أَلَمَامُ
تِي وَبِلَّةُ أَحْلَامُهُنَّ ، وَسَامُ
سِي كَمَا صَانَ قَرْنَ شَمْسِ غَمَامُ
لَان مَا إِنْ يَنْأَلُهُنَّ السَّهَامُ
نَ جَمِيعاً وَنَبْتُهُنَّ تُؤَامُ
وَفُلَيْجٌ مِنْ دُونِهَا وَسَنَامُ (10)

لقد افتتح الشاعر قصيدته بالهم والحزن وسهر عينيه التي لا تنام لفراق الأحبة ويلاحظ أنّ مقدمة القصيدة تتلاءم مع ما كان بينه وبين حبيبته ، ثم انتقل الشاعر مباشرة إلى الحديث عن الهوادج والحمول ، إذ تخيل طعائن الحبيبة وصواحباتها فأجرى في ذلك غزلاً طريفاً ، فأخذ يصف الحبيبة ، ويصف النسوة في داخلها ، فهن كالغزلان في جمالهن ولطفهن ، ثم يمضي يورد الأماكن التي تنقلت بينها الطعائن ، ثم خلص إلى غرضه الرئيس ، إذ وصف خيله وخوضه الحروب على ظهرها مستوفياً فيها الشاعر عناصر القصة كلها من شخصيات المتمثلة بالشاعر نفسه وبتلك النسوة وقوم حبيبته ، والحدث هو وصف ساعة الرحيل ، والزمان هو الخروج في الصباح الباكر ، والمكان المتمثل بـ (نخلة ، بيسان ، برد ، فليج ، سنام)

مما لا شك فيه أنّ للمرأة مكان الصدارة عند أغلب الشعراء إذ " يندر أن نجد شاعراً من شعراء العرب قبل الإسلام لم يعط المرأة من فيض وجدانه حقها ، فقد خصها أغلب الشعراء بمقدمات قصائدهم إجلالاً لها ، وتعبيراً عن صدق المشاعر تجاهها" (11).

وفي شعر الأصمعيات نجد لها حضوراً مميزاً سواء أكانت زوجاً أم حبيبة ، وسواء كانت لائمة على الإنفاق (12) ، أم على مجابهة الأخطار (13) ، أم معيبة للزوج لبيان شيب رأسه وكبره ، وهي في جميعها تتخذ من الحوار جسراً لبث الأفكار وما يعتمل في نفسية الشعراء من ألم وشجون ، فلجأوا إلى هذه المخاطبة لتنفيس عما في داخلهم ، وبمختلف الصياغات.

وثمة أرجوزة كاملة للشاعر صحير بن عمير أقامها على الحوار الذي دار بين رجل وامرأة
لعلها زوجه، إذ كانت تعيره على فقره، كما تعيبه لكبر سنه بقوله: (من الرجز)

تهزأ مني أختُ آلِ طيسلة
قالت : أراه مُملقاً لاشيء له
وهزنتُ مني بنتُ موءلة
قالت : أراه ذالفاً قد دنى له
وأنت لا جُنبتِ تبريحِ الولة
مزوودةٌ أو فاقداً أو مُثكلة
ألسنتِ أيامِ حللنا الأعزلة
وقبلُ إذ نحنُ على الضلضلة
وقبلها عامٌ ارتبعنا الجعلة
مثل الأتان نَصفاً جَنعد لة
وأنا في ضرابِ قيلانِ القلة
أبقى الزمان منك نأباً نهبله
ورحماً عند اللقاح مُقفلة
إمّا ترينى للوقارِ والعلة⁽¹⁴⁾

وهكذا يمضي صحير بأرجوزته هذه بطابعها الحوارية، إذ رد مصوراً حاله وحالها في
سالف الأيام والباقي منها، ثم هجاها هجاء لاذعاً وخلص إلى غرضه الأساس الفخر بنفسه
مجسداً فيها لعناصر القصة من حوار وشخصيات وأحداث، ومما يلاحظ أنها في أغلبها
قائمة على التشبيه، إذ يستعمل الشاعر ما تتيحه له إمكانياته التعبيرية والفنية في تلوين
قصته بتلك الأساليب، وبألفاظ جزلة .

وثمة قصص قصيرة تطالعنا في قضية (طيف الخيال) والتي يقولها الشاعر حين يفارق
أحبته، فيرى الأحبة في اليقظة خيالاً، وفي النوم حلماً بالشكل الذي يكون فيه الحلم أحب إليه
،لأن أحداثه تشبه اليقظة إلى حد كبير⁽¹⁵⁾ . كما في قول مالك بن حريم الهمداني: (من
الطويل)

تذكرتُ سلمى والركابُ كأنها
فحدتُ نفسي أنها أو خيالها
فقلتُ لها بيتي لدينا وعرسي
قطاً واردةً بين اللُفاظِ ولعلها
أتانا عشاءً حين قئمنا لنهجعاً
وما طرقتُ بعد الرقادِ لتنفعا⁽¹⁶⁾

فالشاعر استثمر معطيات السرد بين الحبيبة وبينه في بناء الحدث ، فقد وظف عناصر البناء المختلفة من حوار داخلي وسرد ،والذي يهدف فيه إلى معنى نفسي يرتبط بحالته الوجدانية والعاطفية ، فالصورة هنا جسدت الانفعال النفسي الذي يشعر به الشاعر ،فجاءت الحكاية وظيفتها نفسية أكثر من كونها فنية ، فقد عبرت عن شعور وجداني وذاتي بحت .

ومثله قول معاوية بن مالك في مقدمة قصيدته: (من الكامل)

طَرَقْتُ أَمَامَهُ وَالْمَزَارُ بَعِيدٌ وَهَنًا وَأَصْحَابُ الرَّحَالِ هَجُودٌ
أَنْى اهْتَدَيْتِ وَكُنْتُ غَيْرَ رَجِيلَةٍ وَالْقَوْمُ مِنْهُمْ نُبَّهٌ وَرَقُودٌ⁽¹⁷⁾

يجسد الشاعر هنا حكاية(طيف الخيال) ،وكيف طاف عليه طيف محبوبته ليلاً ، إذ الناس نيام ،واهتدى إليها على الرغم من أنّ بعضهم أي القوم بين مستيقظ ونائم ، ويلاحظ هنا أنّ القصة تمثل حركة انفعال سريع للحدث على الرغم من فقدانها عنصر الحوار لكنها جاءت أكثر إثارة في عرض الخبر البسيط والسرد السريع، إذ اتخذ الشاعر وسيلة للتعبير عن رغباته أو حرمانه .

وهكذا يأخذ الشاعر في قص طيف محبوبته ويبرع في تصوير خيالها وهو يأتيه في النوم واليقظة ،ويلاحظ على هذه القصص أنّها جاءت بلغة أكثر ميلاً أو قرباً من الذاتية منها إلى الموضوعية ، وذلك لإثبات متعلقة بذات الشاعر ومخصوصة بالتعبير عن مكنون نفسه وأماني سريرته .

2. قصص الحيوان

وهي ضرب من القصص التي استثمرها الشعراء في أشعارهم في وجوه كثيرة وفي مختلف الأغراض الشعرية في المدح والفخر والهجاء وغيرها ، فيعتمد الشاعر إلى وصف رحلاته وما شاهده أثناء تلك الرحلة في الصحراء ، وما يعترضهم من مخاطر ، فيقف مصوراً تلك المشاهد متخذاً من أسلوب الحوار وسيلة لإبراز مقدرته الفنية والتعبيرية ، لأنّ الحوار يعتمد على معان نفسية ترتبط بالحدث .

ومن تلك المشاهد قول ضابئ بن أبي الحارث في قصيدة يستهلها بذكر الأطلال ثم يصف الفلوات التي قطعها والثيران الوحشية والقطا التي لاقته ، ويصف الناقة التي يمتطيها ، فقد شبهها تارة بالثور وتارة بالظليم ، وتطرق إلى وصف الصراع الذي دار بين الثور وكلاب الصيد ، وكيف أمكنه أن ينجو منتصراً: (من الطويل)

كأني كسوتُ الرَّحْلَ أخنس ناشطاً	أحَمَّ الشَّوَى فَرِداً بأجمادِ حَوْمَلا
شديدَ سوادِ الحاجبينِ كأنَّما	أُسِفَّ صَلَّى نارَ فاصبحَ أكْخَلا
فصَبَّحَه عِندَ الشُّرُوقِ غُدِيَّةً	أخو قنَ صَيشلي عِطافاً
وأجبلأ	
فجالَ على وَحشيَّه وكأنَّها	يَعاسيبُ صَيْفِ إِثرَه إِذ تَمَهَّلا
فمَارسَها حتى إِذا حَمَرَ رَوْقُه	وقد عُلَّ من أَجوافِهن
وأنَهلا	
يُساقِطُ عنهُ رَوْقُه ضارِياتها	سِقاطَ حديدِ القينِ أخولَ أخولا
فظلَّ سَراةَ اليومِ يَطعُنُ ظِلَّه	بأطرافِ مَدريِّينِ حَتَّى تَقَلَّلا
وراحَ كسيفِ الجَميرِ بِكفِّه	نِصاً غِمَدَه عنهُ وأعطاهُ صَيِّقلا
وأبَ عَزيزِ النفسِ مَانعَ لِحَمَه	إِذا ما أَرادَ البُعدَ مِنها تَمَهَّلا (18)

وهكذا يمضي الشاعر في سرد قصته معتمداً لغة السرد الوصفي لإظهار معاناته ومعاناة ناقته في سبيل الوصول للممدوح ، فضلاً عن إبراز شجاعته في مواجهة الصعاب ، وهذا المنحى مألوف في أشعار الجاهليين بوصفه المحور المركزي لفهم الشعر العربي ، ومن هنا جاءت اللغة في هذا الضرب القصصي ذات خصائص بدوية تتسجم وطبيعة البيئة الصحراوية ، فجاءت اللغة ذات سرد متتابع لحالة الشاعر مع ناقته ، وما شاهده من صراع بين ثور الوحش وكلاب الصيد ، إذ صورة اليعاسيب في الصيف ، وحمّر روقه ، أي طعن الكلاب بطعنات نافذة إلى الأجواف ، لذا نجده يتصفح أجواء الصحراء لفظاً ومعنى (19).

ومن أمثلة القصص المكتملة قول أبي دواد الإيادي في أصمعية له كانت نموذجاً قصصياً من قصص الحيوان ، جاءت مستوفية لأغلب عناصرها الفنية ، فقد قص فيها رحلة الصيد

بالفرس من ذلك قوله : (من المتقارب)

ودارٍ يقولُ لها الرِّئدُو	نَ ويلُ أمَّ الحُذاقِي دَارا
فلَمّا وَضَعنا بِها بَيتَنا	نَتَجنا حُوارا وَصِدنا جَمارا
وباتَ الظَّليمُ مَكانَ المِجـ	نَ تَسَمعُ بالليلِ مِنه عِرارا
وراحَ عَلينا رِعاءَ لَنا	فقالوا : رانِيا بِهِجِلِ صِوارا
فبِئنا عِراةَ لَدَي مُهرِنا	نُنزَعُ مِن شَفَتَيه الصُّفارا
وَبِتَنا نُعَرِّثُه بِاللِجَامِ	نُريدُ بِهِ قَنصاً أو غِوارا
فلَمّا أَضاءَت لَنا سُدُفَةُ	ولاحَ مِن الصُّبْحِ خَيطُ أنارا
غَدونا بِهِ كسِوارِ الهَلو	كِ مُضطَمِراً حَالِباةً اضطِمارا

تَخَالُ مِنَ الْقَوْدِ فِيهِ اقْتَوَرَارًا
 وَثَوْبًا إِذَا مَا انْتَحَاهُ الْخَبَارًا
 وَسَكَنَ مِنْ آلِهِ أَنْ يُطَارًا
 سِيَّ فِي إِثْرِ سِرْبٍ أَجَدَّ النَّفَارًا
 بَيْنَ فَحْلًا وَأُخْرَى مَهَاةً تَوَارًا
 نَ إِمَّا نُصُولًا وَإِمَّا انْكَسَارًا
 وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا (20)

مَرُوحًا يُجَاذِبُنَا فِي الْقِيَادِ
 ضَرُوحَ الْحَمَاتَيْنِ سَامَى التَّلِيلِ
 فَلَمَّا عَلَا مَتْنَتَيْهِ الْغُلَامِ
 وَسُرَّحَ كَالْأَجْدَلِ الْفَارَسِ
 فَصَادَ لَنَا أَكْحَلَ الْمُقَاتِ
 وَعَادَى ثَلَاثًا فَخَرَّ السِّنَا
 أَكَلَّ امْرئٍ تَحْسِينِ أَمْرًا

تبدأ القصة في هذه الأسمعية بالاستعداد للصيد والخروج ليلاً ،حتى يكون الشاعر ومن معه على مقربة من مكان الصيد ، فقد صاد فحلاً وبقرة، ويتبع ثلاثة أخرى رمياً وقتلاً ،فيصرعن الواحدة تلو الأخرى .

ويلاحظ أن الشاعر استوفى عناصر القصة من شخصيات والحدث والمكان والزمان ، فالشخصيات هي الشاعر نفسه وأصحابه والجراد ،والأحداث المتسلسلة في عملية الخروج للصيد ، والحصول على الصيد ،والمطاردة الشقية التي قضاها في عملية الصيد والطرده ، والزمان في منتصف الليل ، المكان واد بين جبلين .

3- قصص المعارك والأيام

يتصاعد في هذه القصص النفس الذاتي مع اختلاطه بالنفس الجماعي ، إذ حس الفخر والحماس يطغى عليها ،فقد وظف الشعراء في تلك الوقائع البطولية قصص ظل يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل حتى صارت بمثابة حدث تاريخي لا يمكن نسيانه ، فنجد يسرد ما حدث وما شاهد من دون مبالغة مصوراً ما يختلج في أعماقه أو ما تركته تلك المعركة من أثر نفسي وانفعال شعوري عبّر عنه بصدق وموضوعية ، ومن تلك القصص قول مالك بن نويرة واصفا لـ (يوم مخطط) وهو من أيام بني يربوع في الجاهلية انتصرت فيه على قبيلة بني بكر، فاخذ مالك يصف ما سمعه عن ذلك اليوم : (من الطويل)

فقد خَبَّرَ الرُّكْبَانَ مَا أَتَوَدَّدُ
 رَزِينٌ وَرَكِبٌ حَوْلَهُ مُتَعَضِّدُ
 وَلاَقُوا قَرِيْشًا خَبَّرُوها فَأَنْجَدُوا
 وَعَمَرُوْا بَنِي يَرْبُوعٍ أَقَامُوا فَأَخْلَدُوا
 ضِنَاكًا وَلَمْ يَسْتَأْنِفِ الْمُتَوَجِّدُ
 سَرَاةً بَنِي الْبَرَشَاءِ لَمَّا تَأَوَّدُوا
 لِيَنْتَزِعُوا عِرْقَاتِنَا ثَمَّ يُرْغَدُوا
 مَبِيَّتٌ ، وَلَمْ يَدْرُوا بِمَا
 نَهَاهُمْ ، فَلَمْ يَلُؤُوا عَلَى النَّهْيِ أَسْوَدُ

إِلَّا أَكُنْ لَاقِيْتُ يَوْمَ مَخَطِطٍ
 أَتَانِي بِنَفْرِ الْخَيْرِ مَا قَدْ لَقِيْتَهُ
 يُهْلَوْنَ عُمَارًا ، إِذَا مَا تَغَوَّرُوا
 بِأَبْنَاءِ حَيٍّ مِنْ قَبَائِلِ مَالِكِ
 وَرَدَّ عَلَيْهِمْ سَرَحَهُمْ حَوْلَ دَارِهِمْ
 حُلُولٌ بِفِرْدُوسِ الْإِيَادِ وَأَقْبَلَتْ
 بِالْفَيْنِ أَوْ زَادَ الْخَمِيْسُ عَلَيْهِمَا
 وَكَانَ لَهُمْ فِي أَهْلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ
 يُحَدِّثُ الْعَدُوَّ
 فَلَمَّا رَأَوْا أَدْنَى السِّهَامِ مُعْزَبًا

بني الحصن، إذ شارفتهم ثم جدّوا
مع الصبح أذى من البحر مُزبداً
ترى الشمس فيها حين ذرت توقد
إذا لقيت أقرانها لا تعرّداً
من الطعن حتى استأسروا وتبدّوا (21)

وقال الرئيس الحوفران: تلبّوا
فما فتئوا حتى رأونا كأننا
بلمومة شهباء يبرق خالها
فما برحوا حتى علتهم كائب
ضمنا عليهم طابتهم بصائب

وقف الشاعر هنا مصوراً ما دار في الميدان وكأنه مصور يرسم شعره ما شاهده، ووسيلته إلى تحقيق ذلك هذا السرد الذي تماسكت به أجزاء أبياته، فضلاً عن ذلك الارتباط النفسي بين أجزاءها، مما شكل صورة نفسية بل صورة تفصيلية للأحداث الواقعة، كان الشاعر دقيقاً في وصف تلك المعركة من حيث التحرك والتصوير المسهب بخفة وسرعة تتناسب وأصوات الطعن والضرب بالسيوف مجسداً عناصر القصة بكل دقة مع الإشارة إلى أسماء المواضع والأشخاص، ليبين واقعية ذلك الحدث المروي، فجاءت الفاظه قوية الجرس، ايجابية المعنى إذ هي رماح وسيوف، وطعن وضرب، وقتل واسر، وأشلاء وانتصار ووقائع.

ومثله قصيدة عوف بن الأحوص التي قالها في الحرب التي دارت بين قومه من ناحية، وبين قبائل كنانة وبكر وقريش من ناحية أخرى: (من الطويل)

وكان لها قدماً من الله ناصر
أتيح لنا ذيب مع الليل فاجر
كتائب يرضاها العزيز المفاخر
شفاء لما في الصدر والبغض ظاهر
كأنهم بالمشرفية سامر
ويلحق منهم أولون وآخر
غمامة يوم شره متظاهر
هوازن وارفضت سليم وعامر
إذا أو هن الناس الجدود العواتر (22)

أنتنا قريش حافلين بجمعهم
فلما دنونا للقباب وأهلها
أتيحت لنا بكر وتحت لوائها
وكانت قريش لو ظهرنا عليهم
حبت دونهم بكر لم نستطعهم
وما برحت بكر تثوب وتدعى
لذن غدوة حتى أتى الليل وانجلت
وما زال ذلك الدأب حتى تخاذلت
وكانت قريش يفلق الصخر جدّها

يبود الشاعر هنا كأنه مؤرخ لما يقع أمامه، فقد عمد إلى الحدث، ووصف الجو العام لتلك المعركة، ثم متابعة الحركة فيها ابتداءً من مجيء قريش إليهم إلى نهاية المعركة، فجاء بتسلسل منطقي وزمني واقعي لها، فضلاً عن غياب شخصية الشاعر هنا، فهو يصف حاله وحال المقاتلين من قومه، فلم يخص ذاته بشيء من التمجيد والإطراء، وإنما تحدث بواقعية التي أبعدته عن المبالغة والتهويل الذي يتطلبه الفخر بمثل هذه المواقف.

وتبدو هنا أيضاً دقة الشاعر في رصد حركة المقاتلين والتصدي لهجومهم السريع الخاطف بقوله (أنتنا قريش بجمعهم) ولم تنس ذاكرته السمعية أصوات الطعن والضرب بالسيوف، وهم لا يستطيعون ردها بقوله (حبت دونهم بكر فلم تسطع... كأنهم بالمشرفية سامر) وهنا يعترف عوف ببأس الخصم وشجاعتهم في الحرب وانتهى به الأمر في آخر المطاف إلى عقد

الصلح بين الجماعتين ، إذ عمد على ذكر الحدث بشكل مفصل ،فضلاً عن ذكره لإسماء بعض الشخصيات ممن كانت لهم مكانة خاصة عندهم ، حتى جاء كلامه كاملاً وشاملاً ولم يكن خارجاً عن الموضوع ، ولا مخللاً بالوحدة الفنية للقصيدة ،فقد أوجد صورة متكاملة لتلك المعركة متجسدة بالسرد للحادثة أو المعركة . لذا فقد جاء هذا البناء الفني المتكامل في وحدة متقنة تختفي فيها الذات وراء الرصد الأمين بجزيئات الأمور .

وتطالعنا قصيدة المهلهل بن ربيعة يصف حاله بعد مقتل أخيه ، فأخذ يقص مفتخراً بما حلَّ بخصومه ، وهو يتمنى أن ينبش قبر أخيه ليخبره عما لاقاه الأعداء من ضرب عسير وقاسي مصوراً وقفته الصارمة في طلب ثاره بقوله : (من الوافر)

<p>إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحورى فقد يُبكي من الليل القصير فيخبر بالذنائب أئُّ زير وكيف لقاء من تحت القبور بُجيراً في دمٍ مثل العبير عليه القشعمان من النسور يُدافعن الأسنة بالأنحور بجوف غنيزة رخياً مُدير صليل البيض يُفدع بالذكور⁽²³⁾</p>	<p>أيلتتا بذى حُسمٍ أنيرى فإن يك بالذنائب طال ليلى فلو نبش المقابر عن كليب بيوم الشعثمين لقر عينا فإني قد تركت بواردي وهمام بن مرة قد تركنا وصبنا الوخوم بيوم سوء كأنا غدوة وبنى أبينا فلولا الريح أسمع أهل حجر</p>
--	---

لقد بدأ الشاعر قصيدته بوصف الحالة النفسية الصعبة والمزرية التي يمر بها ،ثم أنتقل بعد ذلك إلى حديث الفخر بنفسه ، لأنه نال الثأر من قاتل أخيه، ثم العودة إلى القتل وتأبينه ، ويلاحظ أن الشاعر قد جسد عناصر السرد القصصي من شخصيات المتمثلة بالشاعر وأخيه والحادثة المتمثلة بحادثة القتل والمكان المتمثل بـ (الذنائب) موضع قتل أخيه ، والزمان المتمثل بتلك الليلة في ذي حسم التي جلبت الحزن والأسى للشاعر ،فضلاً عن ذكره لشخصيات مهمة وهم فرسان بني بكر (همام بن مرة)، ثم يمضي الشاعر مفتخراً بقومه ويصف شجاعتهم ، فإن قوة منازلهم بلغت القمة في الشدة والبأس، إذ إن صليل السيوف تسمع بها الأقوام الأخرى في مواضع بعيدة، وهذا الحديث فيه من المبالغة والغلو مما لا ينكر .

وهنا يتصاعد الحس البطولي والافتقار الفردي والجماعي في آن معا ،لأنه في معرض الأخذ بالثأر للمقتول ،فلا بد أن يبرز جو التحدي والشدة ،مما يمنح الواقعة قوة إحياء وعمق تأثير واستجابة .

ومما تقدم يلاحظ أنّ اللغة التي جاءت في القصائد التي يظهر فيها السرد القصصي منها قصص طغت فيها الموضوعية، وتقع مضامينها خارج ذات الشاعر والمتمثلة بقصص (الحيوان)، إذ تكون اللغة فيها ذات ألفاظ بدوية مستمدة من طبيعة البيئة الصحراوية، ومنها قصص تجد فيها ذات الشاعر طاغية وتكون فيها اللغة بعيدة عن الألفاظ والتراكيب المعقدة، وخاصة في القصص التي تحكي المغامرات العاطفية، فتكون ذات انسيابية مؤثرة لأنها مرتبطة بالتعبير عن عواطفه ومشاعره بكل عفوية وصدق شعوري .

ومما يلاحظ في هذا النمط من الاستعمال أيضاً غلبة عنصر الوصف فيه أكثر من المبنى الحكائي، فغالبا ما يقتصر النص على حدث واحد يسرده الشاعر، ويبدأ بوصفه والدوران حوله، فضلاً عن طغيان صوت الشاعر أكثر من أصوات الأشخاص، بتكريسه لصفات وخصائص مرتبطة بمشاعره وأحاسيسه، فيكاد صوت الآخرين يغيب .

فالشعر القصصي - عموماً- يدور حول صور يسرد فيها الشاعر ما كان قد حدث فيها من قول أو فعل أو محاورة تخيلها أو وقعت له بالفعل، وهذه المقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق تقنية قصصية اصطبغت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

الخاتمة

إن الشعر القصصي أسلوب فني ألتجأ إليه شعراء الأصمعيات لتصوير واقع حياتهم، فالشاعر دائماً يهدف إلى تسخير أو توظيف جل طاقاته الإبداعية، وقدراته الفنية لبلوغ الهدف الذي يرمي إليه ، ألا وهو التعبير عن أفكاره ومشاعره ورغباته، والتأثير بالمتلقي وإحداث المتعة في آن واحد ، وأثناء ذلك يسلك طريقاً طويلاً، وأساليب مختلفة للوصول إلى هدفه، ولذلك أوجد الشعراء في القصة الشعرية وربما بعض عناصرها المجال الواسع للتعبير عن أفكار امنوا بها ، أو مواقف مروا بها ، وفي الوقت نفسه كسب إعجاب المتلقين والسامعين، فأنتجوا الشعر القصصي بما يمتلك من مقومات من حوار وسرد ووصف جميعها أسهمت في خلق نفسية قصصية اصطبغت برؤية الشاعر وحالته النفسية .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الشعر القصصي عند شعراء الأصمعيات ،يمتاز بالاستطراد والعموية، إذ تطالعنا في القصيدة الواحدة أكثر من قصة، ونجد تفاوتاً في عناصر تلك القصص سواء في الشخصيات أم في الأحداث أم في الزمان والمكان أم في النتيجة .

ويلاحظ في بعض القصائد أنها قائمة على حوار يأتي أحياناً بسيطاً لا يخرج عن نطاق المساجلة الآنية والأثر الذاتي، وبعضه يكون طويلاً تنبعث فيه فلسفة الشاعر في الحياة وما يحيط به ، والتي تظهر بها ملامح الإصرار الذي دفعه إلى هذا السلوك ، وقد يكون هذا الحوار متخيلاً إذ لا وجود للنسوة حقيقة بل هنّ من تخيل الشعراء ،وهذا على سبيل المثال لا الحصر ، وقد تكون حقيقية أوجدها الانفعال والموقف الشعوري ،أو جاء به الظرف المناسب،لذا نجد في شعر شعراء الأصمعيات السرد القصصي الآني لكونه يروي أحداثاً قد عاشها ووقعت له فعلاً.

الهوامش

- (1) ينظر القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي : 362.
- (2) ينظر الأدب القصصي : 34.
- (3) ينظر النقد الأدبي الحديث : 454.
- (4) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام : 15.

(5) المصدر نفسه : 16

(6) ينظر أصمعية 14، وهي أصمعية للشاعر المنخل اليشكري ، وينظر عن تفصيل هذه القصة المصدر السابق :155.

(7) ص68، الخليط: القوم الذين أمرهم واحد، العروب: الضاحكة ،والمتحببة إلى زوجها، شكول:جمع شكل وهو الضرب،القصد: الوسط بين الطرفين، الجبلية الغليظة، القصف: النخيفة، السدف: ظلمة الليل،الزهراء:البقرة الوحشية ، اللبة: وسط الصدر والمنحر ، الجلف: القشر.اثلة: اسم صاحبتة .

(8) ينظر الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره : 205 / 2.

(9) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام : 128.

(10) أصمعية 65، واكنات: جالسات، يقضمن: الأكل بإطراف الأسنان ، الضرم: شجر طيب الريح، نخلة: موضع، يكتبن : يتبخرن بالكباء، الينجوج: العود، كبة المشتى: شدة الشتاء ، بله أحلامهن: غافلات عن الخنا ، وسام: جمع وسيمة أي الثابتة الحسن .

(11) السرد القصصي في الشعر العربي قبل الإسلام : 128 .

(12) ينظر أصمعية 12، 56 .

(13) ينظر أصمعية 19،10 .

(14) أصمعية ص90 ، طيسلة اسم قبيلة ، مملقا فقيراً ، دالفا من الدلف قصر خطوه وضعفه ، لا جنبت لا حبيبت ، المزؤودة الخائفة ، حللنا المكان أقمنا فيه ، الضلضلة موضع ، ارتبعنا أقمنا ،الجعلة موضع ، النصف التي بلغت خمسا وأربعين ، الجندله الصخرة الكبيرة ، القيلان جمع قول ، القله عود طول شبر يلعب به الأولاد ، نهيلة هرمه ، مبهله مهمله ، العلة الجزع . وينظر أيضاً ص 26،30 .

(15) القصة في الشعر العربي : 52.

(16) أصمعية 15، الركاب: الإبل، اللفاظ: ماء لبني إباد، لعلع: موضع .

(17) أصمعية 75 .

(18) أصمعية 63،الأخنس: أراد الثور،والخنس: قصر الأنف ولصوقه بالوجه ، الناشط: الثور الوحشي الذي يخرج من بلد إلى بلد ، ألحم :الأسود، الشوى: جماعة الأطراف وهي اليدان والرجلان والرأس، الاجماد: هو ما ارتفع من الأرض، حومل: موضع، الصلى: اسم للوقود، غدية : تصغير غدوة، القنص: الصيد، يشلى: يغري، عطاف وأجبل: اسما كلبين، الوحشي: الجانب الأيمن وقيل الأيسر، اليعسوب: أمير النحل ، الروق: القرن، النهل: أول الشرب، العلل: الشرب الثاني، ضاريات : الكلاب، القين : الحداد، أخول: متفرق ، المدريان: مثنى مدرى وهو القرن، تقلل : تتلم.

(19) وينظر أيضاً أصمعية 58، 66، 76، 81.

(20) ينظر أصمعية 66 ،الحذاقي : يعني نفسه ، نتجنا نتاج الناقة ، الحوار : ولد الناقة ، الظليم : ذكر النعام ، المجن : الترس ، العرار : صوت الظليم ، الهجل : الغائط ، الصوار : القطيع من البقر ، الصفار : نبت له شوك ، الغوار : الغارة ، السدفة : الضوء، الهلوك : المرأة الفاجرة ، الاقورار : تشنج الجلد ، الضروح : الفرس ، سامى التليل : مرتفع العنق ، المنتان : مكتنفا الصلب عن يمين وشمال من عصب ولحم ، الأجدل : الصقر ، النصول : خروج النصل من الرمح.

(21)أصمعية 67، مخطط: موضع كان به يوم من أيامهم ، يهلون: رفع الصوت، عمارا : معتمرين، تغوروا: أتوا الغور، أنجدوا: اتو نجدا، السرح: الإبل الراعية، الضناك : الموثق الخلق الشديد ، فردوس الأيادي: روضة ديار بني يربوع ، بنو البرشاء: هم ذهل وشيبان وقيس أبناء ثعلبة ،والبرشاء لقب أمهم .

(22) أصمعية 79، وينظر أيضاً أصمعية 34، 69، 70، 77.

(23) أصمعية 53،الذنائب : موضع ، الشعثمين: موضع ويوم واردات من ايام حرب البسوس ، عنيزة : موضع حجر: من مدن اليمامة، الصليل : صوت السيوف ، الذكور: اشد السيوف ، وينظر أيضاً ص25.

المصادر والمراجع

- الأدب القصصي عند العرب. موسى سلمان ،دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط4، 1969م.
- الأصمعيات ،اختيار الأصمعي . أبي سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك (ت216هـ) ، تحقيق احمد محمد شاكر ،وعبد السلام هارون ، دار المعارف بمصر ، ط7، 1993.
- الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره . الدكتور صلاح عبد الحافظ ،دار المعارف بمصر ،1982م
- السرد القصصي في الشعر الجاهلي . الدكتور حاكم حبيب الكريطي ، كلية الآداب ، جامعة الكوفة ، 1430هـ - 2009م .
- فن كتابة القصة .حسين القباني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، مصر ، (د.ت).
- القصة في الشعر العربي . ثروت أباطة ، دار المعارف بمصر ،1977م.
- القصة والحكاية في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي . بشرى الخطيب ، دار الشؤون الثقافية العامة ،بغداد ، 1990م.
- النقد الأدبي الحديث .الدكتور محمد غنيمي هلال ، دار النهضة العربية ،القاهرة ،ط4، 1969م.